النار والسيف في السودان

سقوط الخرطوم · موت المهدي · حكم الخليفة

لما بلغ المهدي ما حلَّ بهكس باشا ورجالهِ عَلَى ما ذكرناهُ في الجزء الماضي علم ان بلاد السودان كلها صارت في قبضة يدهِ فبعث خالدًا (زوقل) الى دارفور وكرم الله الى مديرية بحر الغزال ودان لهُ شرقي السودان وصدَّق سكانهُ دعوتهُ وجاهدوا في سبيلها . ولغلب صهرهُ ولد بصير عَلَى الجزيرة بين البحر الازرق والابيض . هٰذَا كان حال السودان لما بلغ غوردون مدينة بربر في ١١ فبراير (شباط) سنة ١٨٨٤ . ولما بلغ الخرطوم بعد سبعة ايام نشر منشورًا جعل فيهِ المهدي سلطانًا عَلَى كردفان وبعث اليهِ بالهدايا وطلب منهُ اطلاق الاسرى واباح التخاسة . قال سلاتين ولو كان مع غوردون قوة حربيَّة تحمي ظهرهُ لرضي المهدي بذلك ولكن لما بلغهُ انهُ جاء الخرطوم وحدهُ مع اركان حربهِ استغرب امرهُ واستخفَّ بهِ فردَّ لهُ الجواب يدعوهُ الى التسليم

وكان عبدالله التعايشي مشيرًا للمهدي ومدبرًا لامورهِ كما قدَّمنا وكان المهدي يعتمد عليهِ في كل الامور ويعمل برأيهِ فغاظ ذلك اقرباءهُ وجعلوا يكيدون لهُ المكايد فشكاهم الى المهدي وطلب منهُ ان ينشر فضلهُ عَلَى رؤوس الاشهاد فنشر المنشور الآتي

بسم الله الرحمن الرحيم اعلموا يا انصاري ان نائب الصدِّيق (ابي بكر) امير جنودنا المشار اليهِ في رؤيا النبي هو السيد عبدالله بن السيد حمدالله هو مني وانا منهُ ناكرموهُ كما تكرموني واخضعوا لهُ كما تخضعون لي وثقوا بهِ كما تثقون بي واعتمدوا عَلَى كل ما يقول ولا تخالفوهُ في عمل فان كل ما يعملهُ انما يعملهُ بامر النبي او بامري . واذا اراد الله ونبيُّهُ شيئًا فليس علينا الاَّ الطاعة ومن ارتاب في ذلك فهو كافر جحود" . الى ان قال "الخليفة عبدالله هو امير المؤمنين وهو خليفتي ونائبي فثقوا بهِ واطيعوا اوامرهُ ولا ترتابوا في شيء مما يقول" . فصار الخليفة عبدالله من ذلك الحين الآمر الناهي في كل الامور

وقد قلنا ان سلاتين جاء المهدي وبايعهُ فامرهُ المهدي ان يكون في خدمة هٰذَا الخليفة ويأتمر باوامرهِ . ويظهر لنا ان الخليفة كان يعلم مقدرة سلاتين عَلَى قيادة الجيوش وادارة البلاد وكان يودُّ ان يستخدمهُ لذلك . ولو خدمهُ سلاتين بالهمة والاخلاص كما خدم الحكومة

المصريَّة لكان اعظم رجال السودان الآن. نعم ان الخليفة غدَّار ولكنهُ لو رأى الاخلاص من سلاتين ما نالهُ منهُ مكروهٌ. اما سلاتين فكان يكرههُ لخبثهِ وغدرهِ وكان يحسب ان ارتباطهُ بخدمة الحكومة المصريَّة يقضي عليهِ بمعاداة اعدائها ولو نال منهم كلَّ خير ولهذا علة ما حلَّ بهِ من الرزايا وهو في اسر المهدي كما سيجيء

ولما رأى غوردون ان المهدي لم يخل بمنشورهِ بل دعاهُ الى التسليم عزم على مقاتلتهِ منتظرًا المدَد من الحكومة المصريَّة وكان المهدي قد امَّر الحاج محمدًا ابا جرجا على الجزيرة وامرهُ ان يحصر الخرطوم فخرج اليهِ غوردون باشا واوقع بهِ واثخن في رجالهِ. وبلغ الخبر سلاتين فدنَّس كربهُ وايقن بقرب النجاة. ودعاهُ الخليفة الى بيتهِ تلك الليلة وعشَّاهُ معهُ ثم سألهُ عمَّا بلغهُ من امر ابي جرجا فانكر انهُ سمع شيئًا فقال لهُ الخليفة "ان غوردون باغت الحاج محمدًا (ابا جرجا) برًّا وبحرًا وانشأ جدرانًا لمراكبهِ تصد رصاص الانصار وهو رجل داهية ولكن سيحل بهِ عقاب الله. ولقد ابتهج بهذا النصر على غرَّة منهُ لأن الله انما ينصر المؤمنين وستحلُّ بهِ نقمة الله قريبًا. والحاج محمد ليس بالرجل الذي يقوى على قهرهِ ولذلك سيرسل المهدي عبد الرحمن ولد النجومي لحصارهِ". فقال سلاتين "عسى ان لا تكون خسارة الحاج محمد كبيرة" فقال الخليفة "لا حرب بلا خسارة ولكن التفاصيل لم تبلغني حتى الآن". وكأنهُ خاف العواقب فزاد في اكرام سلاتين

وكان اهالي الخرطوم يظنون ان غوردون باشا انما جاءها ليخرج منها بالحامية فرابهم امرهُ وفشا داء الخيانة في ضباط الجيش فحاكم بعضهم في مجلس عسكري وقتلهم. وقسم المهدي جنودهُ ثلاثة اقسام وجعل كل قسم منها تحت امر خليفة من خلفائهِ الثلاثة وجعل الخليفة عبد الله رئيسًا عليهم باسم رئيس الجيش واعطاهُ راية زرقاء. واعطى الخليفة عليًّا ولد حلو راية خضراء والخليفة محمد شريف راية حمراء وهي راية الاشراف. وكان يستعرض جنودهُ كل جمعة فتصطف جنود الخليفة عبد الله برايتها الزرقاء متجهة إلى الشرق وجنود الخليفة علي ولد حلو برايتها الخضراء متجهة إلى الغرب وجنود الاشراف برايتها الحمراء متجهة إلى الشمال. اي تستقم الجنود كلها في مربع لهُ ثلاث اضلاع فيدخل المهدي بحاشيتهِ من فرجة الضلع الرابع ويدور عليهم راكبًا وهو يقول الله يبارك فيكم وهم يجيبونهُ بالهتاف. وكانوا يقولون انهم يشاهدون النبي راكبًا معهُ ويسمعون اصواتًا من السماء تناديهِ وتستنزل لهُ ولانصارهِ البركات ويرون الملائكة تظللهُ باجنحتها الى غير ذلك مما تخيلهُ مخيلة الشرقي ولا يعسر تصديقهُ على الجهلاء

ولما انقضى شهر رمضان ادَّعى المهدي ان النبي ظهر لهُ وامرهُ بفتح الخرطوم. فامر

امراءهُ كلهم بالحملة عليها ومن يتخلف منهم استحلَّ مالهُ فسارت تلك الجموع كأنها سيل العرم وفيما هي سائرة اقبل عليها اوليفر باين الرحالة الفرنسوي وكان قد شاع خبر قدومهِ قبل ذلك وقال البعض انهُ امبراطور فرنسا والبعض انهُ من اقارب ملكة الانكليز . وكان قد لبس جبة واعتمَّ بعمامة كالدراويش فاحضروهُ إلى الخليفة فسألهُ عن غرضهِ فأخذ يتكلم بالعربيَّة رطانةً لا تفهم فقال لهُ الخليفة " تكلم بلسانك مع عبد القادر (اي سلاتين) وهو يترجم لنا " . فنظر باين الى سلاتين وحياهُ بالانكليزيَّة وسألهُ عما اذا كان يتكلم الفرنسويَّة فقال لهُ سلاتين " اسمي سلاتين تكلم في شغلك الآن وبعدهُ تتكلم على انفراد " فراب الخليفة ذلك وانتهرها وقال " اريد ان اعرف ما هو غرضهُ " . فقال سلاتين " انما قلت لهُ ان يخبرك بمرادهِ صريحًا ولا يخفي شيئًا لان الله اعطاك واعطى المهدي معرفة الضمائر " . وكان حسين باشا خليفة حاضرًا فقال " صدقت اطال الله عمر الخليفة " ثم التفت الى سلاتين وقال " لقد احسنت في تنبيه الرجل الى هذا الامر " فسُرَّ الخليفة من الاطناب بمدحهِ وقال لسلاتين " اجتهد لكي تكتشف بواطنهُ "

واخذ باين يتكلم بالفرنسويَّة فقال " اسمي اوليفر باين وانا فرنسوي وقد احببتُ السودان من صغري وكل اهل وطني يحبون اهالي السودان مثلي . ونحن في اوربا على خلاف مع الانكليز الذين احتلوا مصر وارسلوا غوردون احد قوادهم الى الخرطوم وقد اتيت لكي اعرض عليكم مساعدتي ومساعدة امتي " . فقال لهُ الخليفة " وما هي المساعدة " فاجاب " اما انا فاساعدكم برأيي فقط واما الامة الفرنسويَّة فتساعدكم بالمال والاسلحة " . فقال لهُ الخليفة " أأنت مسلم " فقال " نعم منذ زمان طويل وقد جاهرتُ بذلك في الابيض " ثم ذهب الخليفة ليخبر المهدي بذلك وبقي سلاتين وباين وحسين باشا خليفة فقال حسين باشا لسلاتين بالعربيَّة " أمن السياسة ان يُعرَّض المال والاسلحة على اناس غرضهم قتل البشر ونهب اموالهم وسبي نسائهم وبناتهم وانتم اذا اشترى واحد منا عبدًا اسود فلما يفضل على الحيوان الاعجم قلتم ان ذلك اثم فظيع وعاقبتمونا عقابًا صارمًا " . فلم يجز سلاتين جوابًا

ثم عاد الخليفة وامرهم بالوضوء لكي يصلوا وراء المهدي فتوضوا وذهبوا إلى المصلَّى واتى المهدي وقد لبس جبة بيضاء معطرة وكان عمامتهُ وكحل عينيهِ وكأنهُ سُرَّ بوفود باين عليهِ فاراد ان يدهشهُ بحسن طلعتهِ . ثم جلس على سجادتهِ ودعاهُ اليهِ ورحَّب بهِ وامر سلاتين ان يترجم بينهما فقال باين كما قال اولاً فاجابهُ المهدي لقد علمتُ ما تقول ولكني لا اعتمد على الناس بل على الله ونبيهِ . انت من قوم كفَّار فلا يمكنني ان اتحالف معهم . وبعونة

الله ساغلب كل اعدائي بواسطة انصاري الابطال وصفوف الملائكة ٱلتي يرسلها لي النبي ". ولما قال ذلك هتف الجميع باصوات البشر والسرور. ثم قال لباين لقد قلتَ انك تحب ديننا وانهُ الدين الحق فهل انت مسلم . فقال باين نعم ثم قال كلمة الشهادة بصوت جهوري . فاعطاهُ المهدي يدهُ فقبّلها وصلوا وعادوا إلى خيامهم

ولما وقف باين على حقيقة احوال المهدي ودّ ان يعود ولو بخفي حنين واحتال سلاتين على جعل الخليفة يسمح لهُ بالعودة فلم يسمح . ثم مرض باين بالتيفوس فقام سلاتين على الاعتناء بهِ ولما اشتد عليهِ المرض استدعى سلاتين وقال لهُ "قد دنا الاجل فاشكرك لاجل اعتنائك بي واهتمامك بامري . وآخر معروف اطلبهُ منك هو انك اذا نجوتَ من ايدي هؤلاء البرابرة واتيتَ باريس فاخبر زوجتي واولادي التعساء انني كنت افكر بهم وانا على حافة القبر ". ثم اخذ يبكي وينتحب . وحملوهُ في اليوم التالي على جمل فوقع عنهُ وقضى نحبهُ ودفن في تلك القفار

ولما قرب المهدي بجيوشهِ من الخرطوم جاءهُ الشيخ محمد شريف استاذهُ الذي طردهُ من حلقتهِ وهو نائب اليهِ عمّا بدا منهُ فرحّب بهِ واكرمهُ اكراماً عظيماً فاطاعهُ جميع اتباع هذا الشيخ واعترفوا بدعوتهِ . ولما صار على يوم واحد من الخرطوم استدعى سلاتين وقال لهُ اكتب الى غوردون ان يسلم فيسلم هو ورجالهُ واخبرهُ اني انا المهدي الحقيقي وانهُ ان ابى التسليم حاربناهُ كلنا وانت تحاربهُ معنا بيدك والنصر لنا وقل لهُ انك انما تخبرهُ بذلك حقناً للدماء

فاعتذر سلاتين عن ذلك وقال ان قلتُ لهُ انك المهدي الحقيقي واني احاربهُ معكم لم يصدقني ولكني اكتب اليهِ ان رجالك اكثر من رجالهِ واقوى وانهُ ان حاربكم دارت الدائرة عليهِ والنصحهُ بالتسليم . فرضي المهدي بذلك لكن سلاتين اخلف الوعد فكتب الى غوردون يشدّد عزائمهُ ويقصّ عليهِ تاريخ تسليمهِ كأنهُ قائم في مجلس حربي يدافع عن نفسهِ ثم طلب منهُ ان يحتال في تخليصهِ من يد المهدي بان يكتب اليهِ بالعربية يطلب منهُ ان يقابلهُ في ام درمان لكي يتذاكر معهُ في شروط الصلح فينجو من يد المهدي . وكتب الى قنصل النمسا في الخرطوم يسألهُ عمّا شاع من عزم غوردون على التسليم مخافة ان يكون صحيحاً فيكون في استجارتهِ بهِ كالمستجير من الرمضاء بالنار لانهُ اذا هرب الى الخرطوم ثم سلّم غوردون فالمهدي لا يعفي عنهُ . وارى المهدي الكتابين فامرهُ ان يرسلهما مع رسول . وجاء كتاب من قنصل النمسا بعد ذلك يخبرهُ فيهِ بوصول كتابهِ و يدعوهُ الى ام درمان (طايبة راغب بك) لكنّ

غوردون لم يكتب لهُ . والظاهر ان احد جواسيس المهدي في الخرطوم اطّلع على ما كتبهُ سلاتين وبعث بخبر المهدي بهِ فدعاهُ المهدي ليلاً ووضع القيود في رجليهِ وعنقهِ حتى كاد لا يستطيع الحراك وطرحهُ في سجن المجرمين . وزارهُ الخليفة تلك الليلة وقال لهُ انهم وضعوهُ في القيود لانهم ارتابوا فيهِ . ويظهر من كلام الخليفة انهُ بُلّغ مضمون ما كتبهُ سلاتين ولكنهُ لم يوضح ذلك إما تجاهلاً وإما ظنًّا منهُ ان ما بلغهُ قد يكون وشايةً . اما سلاتين فيعتقد ان المهدي لم يعرف ما كتبهُ الاَّ بعد فتح الخرطوم . ولا تتعب القارئ بوصف ما لقي سلاتين من الشدّة والعذاب في سجنهِ . وفيما هو في اشد الضنك والسلاسل والقيود في يديهِ ورجليهِ وعنقهِ اتوهُ برأس غوردون باشا في منديل وأروهُ اياهُ وقالوا لهُ هاك رأس عمك الكافر

وكان المهدي قد قبض عَلَى رسالة من غوردون يقول فيها عندي عشرة آلاف مقاتل واستطيع البقاء في الخرطوم إلَى آخر يناير . فاتى الخليفة بهذه الورقة إلَى سلاتين في سجنهِ لكي يقرأها لهُ فادّعى سلاتين انها مكتوبة بالارقام وانهُ لا يستطيع حلها وكان ذلك في اواخر دسمبر . وجاءهُ رجل يوناني في اليوم التالي واخبرهُ ان طليعة الجنود الانكليزيّة الآتية لنجدة غوردون قد بلغت الدبة قاصدة الحمّة وان المهدي امر ان يجتمع كل البرابرة والجعالين في الحمّة بقيادة محمد الخير وشدّد الحصار عَلَى الخرطوم وجاءهُ المدد من محمد خالد . وكان فرج الله باشا في ام درمان فحارب المهدي حتى لم يبقَ عندهُ شيء من الزاد والميرة فاشار اليهِ غوردون ان يسلّم فسلّم وكان ذلك في ١٥ يناير ولم تكد جنود المهدي تدخل ام درمان حتى انهالت عليها قنابل الخرطوم فاضطرت ان تخرج منها

وكان غوردون قد ارسل خمس سفن من سفنهِ البخاريّة إلَى الحمّة بقيادة خشم الموس وعبد الحميد ولد محمد لكي تنتظر الجيوش الانكليزيّة فيها وكان واثقًا ان النجدة تأتيهِ قريبًا ولهذا لم يقتّر بما عندهُ من الزاد فلما ابطأت النجدة وكاد الزاد يفرغ من الخرطوم اباح للذين يريدون الخروج منها ان يخرجوا ولو فعل ذلك قبل ان قلّ الزاد لامكنهُ ان يحفظ المدينة الى حين وصول النجدة ولكن شفقتهُ عَلَى المستضعفين اوردتهُ واوردت جنودهُ المهالك

وبعد ستة ايام من تسليم ام درمان اشتدّ البكاء والنوح في مخيم المهدي فعرف سلاتين ان خطبًا عظيمًا حل بهِ لانهُ ينهى اتباعهُ من البكاء عَلَى من يقتل في الجهاد . ثم علم ان طليعة الجنود الانكليزيّة التقت بجنود البرابرة والجعالين وغيرهم من جنود المهدي في ابي طليح وقتلت الوفًا منهم وفي جملة الذين قتلوا موسى ولد حلو اخو الخليفة علي واكثر الامراء الذين كانوا مع رجال المهدي . ثم انتصرت الجنود الانكليزيّة في واقعتين اخريين وبلغ المهدي ذلك

بخاف العاقبة واجتمع بقواده وقرّ قرارهم على بذل كل الجهد في فتح الخرطوم قبل وصول الجنود الانكليزية وخرج هو وخلفاؤهُ في الرابع والعشرين مساءً وقطعوا النهر وجعل يحث رجالهُ على الجهاد و يعدهم بفردوس النعيم وامرهم ان لا يصيحوا ولا يجلبوا بل يهاجموا المدينة صامتين حتى لا يشعر بهم احد ثم قفل راجعاً . ففعلوا كما قال لهم و باغتوا المدينة صباح اليوم الخامس والعشرين وكانوا يعلمون جانبًا متهدمًا من حصنها على البحر الابيض وحاميتهُ من الاهالي الجياع الضعناء فخاضوا الماء وداهموها من تلك الجهة فهرب الاهالي من وجههم حالاً وكانت بقية جنود المهدي محيطة بالمدينة من سائر الجهات تشغل الحامية فلم تدرِ الاَّ والوف من العرب قد دخلوها من تلك الثغرة واعملوا السيف في اهلها فانحلَّت عزائم الجنود ورموا سلاحهم من ايديهم وفتحت ابواب المدينة حالاً ودخلها الدراويش وهجموا على سراي الحكومة ووضعوا السيف في مَن فيها . ولاقاهم غوردون على سلم الديوان وقال لهم اين سيدكم المهدي فطعنهُ واحد منهم برمح خرَّ على وجهه ولم يفه بكلمة ثم جرُّوهُ إلى ساحة السراي وقطعوا رأسهُ وارسلوهُ الى المهدي وجعلوا يقطعون يدهُ اربًا اربًا و يخضبون سيوفهم بدمهِ . ولما اوصلوا رأسهُ الى المهدي قال لهم "كنت اودُّ ان تأتوني بهِ حيًّا" مدعيًا انهُ كان يأمل ان يسلمهُ للانكليز و يستبدل بهِ احمد عرابي فيساعدهُ على فتح مصر ومن رأي سلاتين ان ما اظهرهُ المهدي حينئذٍ من الاسف على قتل غوردون لم يكن صحيحًا وانهُ لو كان يريد استحياءهُ ما تجاسر احد على قتلهِ . ومن رأيهِ ايضًا ان غوردون كان يستطيع ان ينجو بنفسهِ لو اراد النجاة لان السفينة اسماعيلة كانت على ثلثمئة يرد من السراي وبقي ربانها في انتظارهِ مدة طويلة

اما الفظائع التي ارتكبها رجال المهدي في الخرطوم فممَّا يعجز القلم عن وصفهِ . ويقال جملة انهم لم يستحيوا الاَّ العبيد والجواري و بعض النساء الحسان . وقتلوا كل مصري رأوهُ وكان العبيد نصراء لهم على اسيادهم مثال ذلك ان الخواجه فتح الله جهامي السوري كان من كبار الاغنياء في الخرطوم وكان عندهُ خادم ربَّاهُ منذ كان ولدًا صغيرًا واعتنى بهِ كأنهُ ابنهُ فلما اشتدَّ الحصار جمع اموالهُ وخبأها في زاوية من زوايا بيتهِ ثم قال لهذا الخادم لقد ربيتك واعتنيتُ بك منذ كنت طفلاً وقد علمتُ الآن ان لك اقارب عند المهدي فاذهب اليهم فان نجت الخرطوم وأُفرج عنها فعد الينا وانت على ما كنت عليهِ من المعزَّة وان كانت الغلبة للمهدي فانتظر منك ان تجازيني على عنايتي بك . فمضى الخادم على هذا الوعد ودخل الخرطوم يوم فتحت مع بعض اقاربهِ واتى بيت سيدهِ وقرع الباب وقال لهُ افتح فاني انا ولدك وخادمك محمد ففتح لهُ وكان اول شيء فعلهُ هذا الخادم الامين انهُ طعن سيدهُ في صدرهِ فالقاهُ

صريعاً وهجم مع اقاربهِ على المكان الذي فيهِ اموال سيدهِ ونهبها

قال سلاتين لو اردت وصف الفظائع الَّتي حدثت في ذلك اليوم الرهيب لملأت مجلداً كبيراً . والذين نجوا من القتل لم يكن نصيبهم افضل من نصيب الذين قتلوا لان الدراويش عذبوهم عذاباً مبرحاً حتى يدلوهم على الاماكن الَّتي اخفوا فيها اموالهم فكانوا يجلدون الرجل مثلاً حتى يتمزق جلدهُ وتتدلى قطع منهُ كقطع الثوب الممزَّق وكانوا يعذبون النساء الكبار ايضاً على صور شتى تقشعر منها الابدان ويأبى ذكرها قلم الاديب اما الفتيات فلم يُعذَّبن بل أُرسلن الى المهدي فاختار الجميلات منهنَّ لنفسهِ وفرَّق الباقيات على الخلفاء والامراء حتى امتلأت بيوتهم منهنَّ . ثم عبر المهدي وامراؤهُ الى المدينة ونزلوا في قصورها وانغمسوا في الشهوات اياماً متوالية حتى فزَّت نفوسهم عنها

وبعد يومين من فتح الخرطوم وصل السر تشارلس ولسن وبعض الجنود الانكليزيَّة الى جزيرة توتي امام الخرطوم على سفينتين من السفن التي ارسلها غوردون مع خشم الموس وعبد الحميد محمد وكانوا قد سمعوا بسقوط الخرطوم وقتل غوردون باشا فلما رأوها بعيونهم وتحققوا ما سمعوهُ انقلبوا راجعين وكأنهم قالوا ان الغرض الذي اتت الحملة لاجلهِ وهو انقاذ غوردون قد فات فتعود ادراجها . واتفق عبد الحميد ربان احدى السفينتين مع رئيسها على الهرب فرطاها ليلاً وفرَّا وجاءا المهديه فرحَّب بهما وخلع جبتهُ على عبد الحميد وردَّ لهُ النساء اللواتي سبين من اهلهِ . وسار السر تشارلس ولسن برجالهِ في السفينة الثانية (بردين) فجنحت بهم على الرمال ثم اتت السفينة صفية لنجدتهم فحاول الدراويش صدها فابلى رجالها فيهم وقتلوا قائدهم احمد ولد فيض ونجا السر تشارلس ولسن ومن معهُ . ولما رأى ولد النجومي ذلك وكان المهدي قد بعثهُ لنجدة حامية المتمة قال لقومهِ اذا كان غرض الانكليز اخذ بلادنا امتنعنا عليهم وحاربناهم واذا كان قصدهم الرجوع من حيث اتوا فلا داعي لحربهم . فابطأ في سيرهِ ولم يصل المتمة الاَّ بعد ابتعاد الانكليز عنها

ولما بلغ المهدي ان الانكليز تركوا السودان طابت نفسهُ وايقن ان البلاد صارت لهُ فجمع رجالهُ وقال لهم ان الله ثقب ما مع الانكليز من القرب فاهريق الماء منها وماتوا عطشاً

وزار الخليفة السجين بعد حين وكأنهُ كان في يوم من ايام نعيمهِ فاطلق بعض المسجونين وسأل سلاتين عن حالهِ حسب عادتهِ بقولهِ " عبد القادر انت طيب " بصوت الاستفهام فقال لهُ ان اذنت لي اخبرتك عن حالي تماماً . فجلس وقال لهُ قل ما بدالك فقال يا سيدي " انا من امة غريبة وقد استجرت بك فاجرتني . والانسان عرضة للخطإ وهو يخطىء الى الله

والى الناس وقد اخطأت ولكني الآن اتوب واندم على كل ما فرط مني اتوب الى الله ونبيهِ وها انا امامك عارياً جائعاً بالسلاسل والقيود انام عَلَى بساط الارض لا فراش ولا غطاء منتظرًا العفو فان كانت مشيئتك يا مولاي ان ابقى على هذه الحال فاسأل الله ان يقويني على احتمالها بالصبر"

فتأثر الخليفة من هذا الكلام وايُّ امرء لا يتأثر منهُ ولو كان قلبهُ من الحديد وقال لهُ انك من يوم اتيت من دارفور قد بذلت جهدي في مرضاتك ولكن قلبك بعيد عنا . وقد ابقيت عليك لانك غريب ولاَّ لكنتَ الآن في عداد الاموات . فان كانت توبتك حقيقيَّة فقد عفوتُ عنك ثم امر السجان بنزع القيود فنزعها . وقرَّبهُ الخليفة اليهِ بعد ذلك وطلب منهُ ان يعدَّ نفسهُ واحدًا من اهل بيتهِ . ومن رأي سلاتين ان الخليفة لم يكن يحبهُ ولا يثق بهِ ولم يكن لهُ اقل فائدة من خدمتهِ ولكنهُ انما اراد بقاءهُ بين اتباعهِ لكي يرى الملا ان مدير عموم دارفور صار من جملة خدمهِ

ومرض المهدي في ذلك الحين ولكن لم يعبأ احد بمرضهِ اولاً لانهُ طالما ادَّعى ان النبي اخبرهُ بانهُ سيفتح مكة والمدينة واورشليم ثم يموت في الكوفة بعد عمر طويل . ولكن مرضهُ كان التيفوس فاشتدَّ حالاً ولم تمضِ ستة ايام حتى يئس اقاربهُ من شفائهِ ولما ايقن بدنو الاجل قال للذين حولهُ " ان النبي اختار الخليفة عبدالله ليخلفني بعد موتي فاطيعوهُ كما كنتم تطيعونني " ثم تشهَّد ووضع يديهِ على صدرهِ واسلم الروح . وكان الخليفتان الاخران واقارب المهدي حضورًا فبايعوا الخليفة عبدالله فوق جثتهِ

وانتشر خبر موت المهدي حالاً ونهى الخليفة عبدالله الناس عن البكاء واقنعهم ان المهدي اشتاق الى الله فذهب اليهِ بارادتهِ لكنهم بكوهُ واعولوا ثم غسلوهُ ودفنوهُ وبايعوا الخليفة عبدالله

وكان المهدي يأمر بالزهد في الدنيا وينهى عن الملاذ وقد ابطل الرتب والمناصب وساوى بين الفقراء والاغنياء واختار الجبة المرقعة لباساً فصارت لباس كل اتباعهِ ولكنهُ خالف كل ذلك فعلاً كما اتضح مما تقدَّم . وجمع بين المذاهب الاربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي بالغاء اكثر ما تختلف فيهِ واختار بعض آيات من القرآن وفرض على الناس حفظها وتلاوتها كل صباح وسهَّل الزواج بتقليل المهر فانهُ جعل مهر البكر عشرة ريالات ومهر الثيب خمسة ومن طلب اكثر من ذلك او قبل اكثر من ذلك أُخذت اموالهُ كلها . وابطل ولائم الاعراس والسكر والرقص واللعب والسباب ومن خالف ذلك فقصاصهُ الجلد . وابطل ايضاً فريضة الحج الى مكة . ومن شك في انهُ المهدي المنتظر او خالف امرًا من اوامرهِ قطعت

يدهُ اليمنى ورجلهُ اليسرى وشاهدان يكفيان لذلك وان لم يوجد شاهدان ادّعى ان النبي ظهر لهُ في حلم واخبرهُ بجريمة المجرم فيحكم عليهِ بغير محاكمة . وابطل كل كتب السنة والتفسير وحرق كل الكتب ألّتي فيها شيء يخالف ما امر بهِ . هٰذا ما علّم بهِ جبارًا اما في بيتهِ وبيوت خلفائهِ وامرائهِ واقاربهم فلم يُرَ الاّ الانغماس في كل ضروب الخلاعة والسكر والملاذ

وسيأتي الكلام على حكم الخليفة عبدالله وهرب سلاتين في الجزء التالي ان شاء الله

اليربوع

اليربوع انواع مختلفة منها الكرجي والانغاني واليركندي والمصري . والمصري اشهرها وهو اصغر حجمًا من غيره طول جسمهِ نحو ١٧ سنتيمترًا وطول ذنبهِ ٢٠ سنتيمترًا ورجلاهُ طويلتان جدًّا ولم يبقَ في كلٍّ منهما سوى ثلاث اصابع ظاهرة ويداهُ قصيرتان واذناهُ كبيرتان كما ترى في هٰذا الشكل . ظهرهُ منجابيٌّ وبطنهُ ابيض وعيناهُ كبيرتان مستديرتان وفي رأس ذنبهِ شعر اسفلهُ اسود واعلاهُ ابيض

ويمتد اليربوع المصري من بلاد العرب الى اران في بلاد الجزائر ويسمى اليربوع ذا الساقين لان يديهِ لا تظهران . وهو يثب وثبًا لقصرهما ويسكن القفار الرمليَّة القليلة النبات حيث القطا والقبَّر الرملي ولونهُ مثل لون الرمال ألّتي يقيم فيها فلا يرى الاّ نادرًا مع انهُ كثير جدًّا . وهو ليلي يخرج قبل الشمس ويسعى في طلب رزقهِ ثم يعود الى جحرهِ ويقيم عند بابهِ ولو كانت الشمس مشرقة ويحفر جحرهُ بيديهِ واسنانهِ ويكون للجحر اربعة ابواب في الغالب . ويقول كتّاب العرب ان جماعة اليرابيع تتعاون كلها في حفر الجحر الواحد .